التحنيط في العصور الأولى وأسبابه

هذا البحث ينحصر في تدوين ما أمكن تلخيصه عن التحنيط في العصور الغابرة من الوجهة التاريخية والجغرافية والأثرية والطرق التي ساعدت على بعض أسرارها الغامضة ،وصرف فيها علماء المباحث أوقاتا ثمينة حتى دونوا ما استطاعوا معرفته، ووصلت إلينا مقتبساتهم دانية الخطوف سهلة التناول .

إن الجثث المكتشفة في القبور والهياكل والأهرامات و نحوها تنبئنا عما كان لتلك الشعوب من قوة العزم وشدة الصبر والتجشم لعظائم المشاق في نقل الأثقال والإتقان الفني المحبوب عندهم ، وتنبئنا أيضا باحترام عواطفهم من عاشروهم في أوقات السعادة والهناء وأزمان الشدائد والمصاعب ولم ينفق قدماء المصريين نفائس الأموال وثمين الأوقات، ويضحوا كثيرا من الأرواح في تشييد تلك المباني لعظماء موتاهم، إلا لمعني يهون عليهم كل تلك النفقات وتجشم تلك المشقات . وفي ضمن هذه المعاني تنفيذ وصايا الدين في احترام العائلات المالكة وتخليد الذكر العاطر لمن كانوا عادلين في شعوبهم ، وتولدت هذه الفكرة فكرة الآثار تخليدا لذكرى من مرت الإشارة إليهم عند قدماء المصريين . واقتدى بهم فيها القرطاجيون والصامويون والجانشيون وهنود أميركا الوسطى، لاسيما عند أهالي إقليم الأنكاس، وكانوا يتحدون في عقيدتهم مع المصريين من أن تحنيط الجثث والعناية بها في المقابر يساعد الروح بعد الموت على الحلول في جثتها محفوظة من كل فناء ، فتستطيع بالمحافظة على هيكلها الأول القيام بما تقتضيه عودتها إلى الحياة الثانية، لتكون مصحوبة دائما بالأفراح والسعادة واقتدى بهم في التحنيط الوقتى بعد أجيال اليونان والرومان.

قال كاسيان إن قدماء المصريين لجأوا إلى التحنيط لأنهم في أشهر فيضان النيل لم يكونوا يستطيعون نقل الجثث إلى الجهات المعدة للدفن ، فاتبعوا طريقة التحنيط

لحفظ الجثث من التعفن؛ وبعد مضي أشهر الفيضان ينقلونها إلى مقابرهم ، وفي هذا منتهى العناية لحفظ الجثث من التعفن والاحتياط في وقاية صحة الأحياء.

وقال هيردوت إن الاعتياد على التحنيط منشؤه الاحتياط في حفظ الجثث من انتهاش الوحوش.

وقال ديودور الصقلى أن قدماء المصريين اتخذوا التحنيط في جملة الشعائر الدينية احتراما لموتاهم.

وقال دي ماييه (De Maillet) في خطابه العاشر أن قدماء المصريين اتخذوا التحنيط بمقتضى عقائد دينية وبمقتضى اعتقاد الأقدمين منهم بأنه بعد مضى ثلاثة أو أربعة آلاف سنة ستقوم ثورة عامة في العالم وترجع الأرواح إلى أجسادها للحياة الثانية في الأبدية الآخرة، فأرادوا بالتحنيط حفظ هيكل الإنسان ليكون صالحا إلى عودة الروح فيه كما كان في نشأته الأولى.

وقال فولتي و باريسو (volaey et Parisot) إن من البواعث على التحنيط الاحتياط لمنع انتشار الأمراض المعدية والطاعون التي تنشأ غالبا من تعفن الجثث فتنتقل في تموجات الهواء الفاسد و تسرى جراثيمها إلى الأصحاء فتضر بالمجتمع الإنساني من حيث لا يشعر.

والأقرب إلى التعويل عليه من كل هذه الآراء ويطمئن إليه العقل هو أن التحنيط من لوازم العقائد الدينية التي في سبيلها ألفوا هذه المشاق وتكبدوا أخطارها بارتياح قلبي وانبعاث دائم، فتعمق الكهنة في مباحثهم حتى توصلوا إلى إحكام أعمالهم وإتقانها وساعدهم جفاف الجو ويبوسة الأرض و الرمال في تجفيف الجثث المعرضة للهواء التي لم يستطع ذووها دفنها في الهياكل الشامخة والمباني الضخمة.كل من يفد إلى الأقطار المصرية بقصد السياحة واجتياز الصحارى والقفار لمعاينة الآثار، يندهش عند ما يرى جثثا بشرية وحيوانية حفظها التحنيط على حالة جيدة بعد دفنها في الرمال و مرور الآن الأجيال عليها.

وكأن الكهنة أرادوا تهيئة الأرواح عند عودها إلى الأشباح في دور الحياة الثانية بما اخترعوه من أنواع الزينة والزخارف فوق التوابيت والمقابر، حتى إذا آن الوقت واقتربت الأرواح من معالم الجثث تسر بمرأى هذه الزخارف، فتعود إلى الأجسام ممتلئة سرورا ويزيد في انشراحها أن ترى تلك الجثث على ما كان لها من بهاء الرونق وجلال العظمة.

وقد استعمل قدماء المصريين احتياطا في بقاء التحنيط سليما لا يعتريه التلاشي ولا الانحلال بالطريقتين اللتين دلت عليهما الاكتشافات العلمية .

(١) تجفيف الجثة بعد إفراز السوائل وإخراج المواد الدهنية بواسطة مركبات النطرون ومسحوقه و المحلولات المعتادة لانغماسها فيها على سبيل التطهير قبل التحنيط وبعده .

(٢) وضع الجثة في لفائف ممزوجة بالمواد العطرية لتكون حرزا صناعيا بتماسكها يمنع وصول الهواء والحشرات ، وهم بهذا الإبداع توصلوا

منذ ستة آلاف سنة إلى طرق علمية تؤيدها كل الاحتياطات الصحية في نظريات العالم الحديث، وان عجزت مداركنا عن الإحاطة الكلية بباقى معلوماتهم في فن التحنيط.

التحنيط عند اهل قرطاجة

كانت مدينة قرطاجة عاصمة لمملكة الفنيقيين الذين خلد لهم التاريخ أدوار باهرة، وكانت لتلك البلاد صلات تجارية مع مصر، وبهذه الواسطة نقلوا عنها أحاسن المدنية و بعض العقائد الدينية حتى اتخذوا لهم في بلادهم آلهة يعبدونها بأسماء انتحلوها عن أسماء الآلهة المصرية.

وما نقلوه بهذه الوسائل مسائل التحنيط والنقوش والرسوم على توابيت ومقابر الموتى لذات الأسباب المألوفة عند المصريين ونقلها أهالي قرطاجة عنهم كعقيدة ثابتة

في نفسيتهم، فاتخذوا نحت المقابر في الصحراء على نمط ما شيد المصريون، وانشئوا حولها أماكن أعدوها لجلوس الزائرين وتأدية الصلاة وتقديم القربان حتى جعلوا نقوش المقابر والتوابيت بذات اللغة المصرية القديمة وأدعية معبوداتهم.

التحنيط عند أهالى الجانش الكناري

كان لمصر في عهد (نخاو) من الأسرة السادسة والعشرين أسطول يجوب البحار ويتجول بين الأقطار لتبادل المعاملات التجارية التي كانت لمصر فيها النهضة الأولى، وكان يكثر من التجول في سواحل البحر الأحمر حتى وصل في بعض أسفاره إلى رأس الرجاء الصالح، وهناك صعد الشاطئ الإفريقي الغربي ومر ببوغاز جبل طارق، وعاد لمصر بطريق البحر الأبيض المتوسط وفي خلال ذلك مر بالجزائر الكنارية التي كانت للمراكب التجارية مواصلات بها.

وقد وجه هذا الأسطول عناية لاكتشاف ما عليه أهالي الجانش من الوسائل العمرانية، وكانت جزائرهم في ذالك العهد تسكنها شعوب بربرية أنهكها الفقر والخمول، ولكنهم وجدوا عندهم بعض الجثث محنطة ويضعونها في أواني خاصة بالتحنيط مدة خمسة عشر يوما فقط ؛ ثم تدفن بالطرق البسيطة، واستدلوا من ذلك على وجود التحنيط في هذه الأقاليم من معهد بعيد، ولكنه لم يصل إلى الدقة والبراعة التي وصل اليها في البلاد المصرية.

وقال الدكتور برسيلى (**Purcelly**) إن ذلك الشعب كان يستعمل التحنيط احتراما للموتى ويعتني بتحنيط كل جثث أهلها أن استطاعوا وإلا فأصدقاؤها وجيرانها الذين كانوا يعطفون على بعضهم عطفا فطريا ناشئا عن رقة الشعور وسلامة العواطف. وقال المسيو بورى دى سنت فينسانت (**Bory cle St - Vincent**) إنهم كانوا يحافظون على الجثث بوضعها في لفائف من جلود المعز بعد اتخاذ وسائل التطهير والتحنيط بطريقة تقيها من الفناء وقتا من الزمن وكان المحنطون عندهم طبقة مبتذلة تعيش منزوية عن الأنظار لا تخالط الناس إلا وقت استدعائها لهذه الحاجة.

وقال الدكتور برسيلى أن الفرق بين طرق التحنيط عند أهالي الجاش والمصريين، أن المصريين كانوا يجعلون لموتاهم لفائف خاصة لكل جثة ولكل ميت قبر منفرد،أما الجانش فيضعون موتاهم في جلود ويجعلون القبر الواحد شاملا لكثير من الموتى.

التحنيط عند الصامويين (Sawnoens)

قال الدكتور بيرزن (**Burzeni**) أن الصامويين كانوا يعتنون بتحنيط موتاهم و يحافظون على آثارهم، وكانت النساء تكلف بعمليات التحنيط فيباشرن عمل الفتحات في الجنة واستخراج المعدة والأحشاء والأمعاء، ويكتفين بوضع الجثة مدة شهرين في حوض ممتلئ زيت جوز الهند ممتزج بعصير نباتي، وتملا فتحات الجسم والتجاويف بقطع من القماش منقوعة بمزيج من زيت نباتى و مركبات أخرى، وتلف الجثث بهذه القطع ماعدا الرأس واليدين ولا نعلم كيفية معرفة هؤلاء القوم لعملية التحنيط وغاية ما يمكن القول به أنهم اقتبسوه من بعض المترددين على الأقاليم المصرية واقتدوا بقدماء المصريين في العناية به احتراما لموتاهم ولتكون أجسامهم صالحة لحلول الأرواح فيها عند الحياة الثانية المملوءة بها اعتقاداتهم جميعا.

التحنيط عند السيتيين (Seytes)

أثبت المؤرخون أن السيتيين كانوا يخصصون إقليم كربيلا(**Karbela**) لدفن الموتى. ولكون الوصول إليها من مدنهم والقرى التابعة إليها يحتاج لتمضية مدة طويلة في الأسفار ؛ فمحافظة على الجثث من التعفن كانوا يستعملون لمنعه ولوقايتها تحنيطا اعتياديا، ويستعملون فيه مركبات الزعفران وما يناسبها من وسائل الوقاية للجسم مؤقتا حتى يصل كل فريق بموتاهم أياما محدودة من الشهور تسهيلا عليهم في مشاق الانتقال و تخفيفا لمشاق التحنيط ونفقاته، فهم كانوا يستعملونه قياما بالواجب لحفظ صحة الأحياء بدون أن يكون الباعث له الاعتقادات الدينية المأثورة عن قدماء المصريين.

التحنيط عند أهالى بورنيو والصين

قال نيوهوف (**Neuhof**) أن التحنيط في أسيا كان متبعا، وإنما لكل إقليم في ترتيباته ومستحضراته الفنية اصطلاحات تطابق اجتهادهم في طرائقه. ففي بلاد بورنيو وبلاد الصين كانوا يستعملون الكافور وخشب الصندل، والبلاد الأخرى كانوا يستعملون كافوربرنيو وجوز فوفل (نبات) وخشب الصبر والمسك.

التحنيط في العالم الحديث

لاسيما عند الأنكاس (**Anens**)

عثر الباحثون على جثث محنطة في أمريكا وبلاد الانكاس وجهات أخرى كانت ملكا خاصا للقبائل الهندية، واستمرت في قبضتهم زمنا طويلا. ووجود التحنيط بها دليل على أنها كانت على درجة من المدنية والعرفان قبل وصول الإفرنج إليها وتسميتها بالعالم الجديد.

ولم يكن التحنيط عاما لكل أفراد الشعب، بل خصوا به الملوك والرؤساء في قبائل فرجينى (**Verginie**) الهندية وكارولين الشمالية وهنود الجانب الشمالي الغربي لأمريكا الجنوبية وسكان الفلوريد.

وكانت عادة أهالي الفلوريد تجفيف الجثث على النار ووضعها على لفائف ثمينة ويضعونها كمشكاة في المغارات، ويعدون بجانبها الأماكن الخاصة لجلوس من يترددون عليها في أيام الزيارات السنوية.

وقال الدكتور رفردى (**Revedy**) ان قبائل فرجيني كانت تبدأ في تحنيط الجثث بشق جلد المتوفى من الرأس إلى القدمين ويبعدون الأمعاء والأحشاء و كل الأعضاء اللينة ويدهنون الجلد بزيوت ممزوجة بتركيب تمنعه من الجفاف والتلف مدة تجفيف الجثة. ومتى تجففت تملا بالرمل الرفيع وتخاط بعناية تامة ويجعل الجلد كغلاف لها وفوقه الجلود الأخرى ولفائف على سبيل الوقاية مثل الحصر ونحوها، وتدفن في حفر عميقة

معدة لذلك لمسافات بعيدة عن المدن والمساكن.

وبينما كانت القبائل المذكورة تخص بالتحنيط فريق الملوك والعظماء والرؤساء كان الأنكاس وحدهم يحنطون شعبهم جميعا بدون استثناء، لأنهم كانوا أكثر مدنية من بقية الشعوب الأمريكانية الأخرى، فقد اشتهروا بصناعاتهم الدقيقة وبراعتهم في العلوم والفنون وبلغ شعبهم في الأزمنة الأولى أربعة عشر مليونا، ويقيمون الآن في بلاد بيرو (Perou) وبوليفي(Bolivei) وبعضهم في جهات شيلى و جمهورية الأرجنتين وكان اعتقادهم أن الأرواح بعد مفارقة الأشباح تعود إليها بعد زمن طويل فتكون لها هذه الأجسام مأوى حديثا تتطور فيه بحسب أحوال حياتها الأخروية، وبهذا يستدل على أنهم كانوا يعتنون بالتحنيط بصفته وسيلة للتكريم الديني.

وكانوا يضعون الجثث المحنطة في قبر تحت الأرض، ويقيمون فوقه هرما بارتفاع ثلاثين قدما، وكل قبر يدفن فيه اثنى عشر شخصا. وبين كل جثة وأخرى أعواد من الذرة، ويميزون الرجال بوضع آلات الصيد ومقلاع ونحوه، والنساء بإبر للخياطة وكرات الصوف و أدوات مماثلة لها.

ومتى تم العدد المقرر لكل قبر سدوا بابه وأقاموا فوقه نافذة مفتوحة ليطل منها زائروهم، وليطلع المارون على الألواح المبينة بها أسماء الموتى وتواريخهم ليتعظ الزائر برؤيتهم في رقود السكينة البرزخية، ولا ريب في ذلك فان الموت من أعظم المواعظ المهدئة للنفوس فيقتبس الزائر من زيارته تأديبا لنفسه وتعويدها على احتمال مشاق الحياة التي تهون عظائمها أمام مصيبة الموت.

التحنيط الوقتي

ثابت أن بعض المألوفات عند الشعوب الشهيرة يحفظها عنهم من بعدهم ويتوارثها الأجيال بالتقليد، وهكذا سنة التكوين والعمران بين بنى آدم يتلقى السلف عن الخلف بعض ما يستحسنه من عاداتهم ومألوفاتهم حتى تصبح التقليدات الغريبة

من غرائز النفوس.

وقلما يستطاع الإقلاع عنها. ومن هذا القبيل التحنيط الوقتي الذي بقى متبعا إلى الآن أخذا عن التحنيط في العصور الأولى.

فان كثيرا من البلاد الغربية اعتادت على إبقاء جثث من يتوفون من عظماء الملوك والرؤساء والأمراء بضعة أيام مكشوفة الرأس واليدين ليراها من يفدون من الأقاليم والمالك للمشاركة في الحفلات الجنازية، وخوفا من تعفن هذه الجثث وانتشار المكروبات المعدية يتخذون الاحتياط الوقتي وقد برع في استعماله مشاهير اليهود واليونان والرومان في عصورهم.

التحنيط عند اليهود

أقام اليهود في مصر قرونا كثيرة متمسكين بعوائدهم متباعدين عن أي تقليد للعوائد المصرية البحتة في ذلك العهد، ومع إصرارهم على اجتناب التقليد بغيرهم استعملوا التحنيط بعد نفيهم لرجالهم العظماء.

وقد ذكر في التوراة أن يوسف حنط جثة أبيه يعقوب (سفر التكوين الأصحاح ٥٢) « وأمر يوسف عبيده الأطباء أن يحنطوا أباه فحنطه الأطباء، وكمل له أربعون يوما لأنه هكذا نكمل أيام المحنطين » (وبعد سبعين يوما من وفاة يعقوب نقله ابنه يوسف إلى أرض كنعان في مغارة حقل المكفيلة التي اشتراها إبراهيم لعملها مدفنا له ولزوجته سارة. فصعد يوسف ليدفن أباه وصعد معه جميع عبيد فرعون شيوخ بيته وجميع شيوخ أرض مصر، وصعد معه مركبات وفرسان. ثم مات يوسف نفسه وهو ابن مائة وعشر سنين فحنطه المصريون ووضع في تابوت في مصر (سفر التكوين ٥٠ – ٥١).

أحاط سليمان مدفن يعقوب بسور معروف اليوم بحرم الخليل وقد حافظ عليه الإسلام وبنوا عليه جامع مدينة حبرون (**Hebron**)

ولما استوطن الاسرائيليون في جهات بحر الأردن لم يحتفظوا بعادة التحنيط الدائم واكتفوا بالتحنيط الوقتي الموصوف في سفر التكوين وغيره من التوراة.

وطريقة استعمالهم له هي أنه مى مات أحدهم يقبله أحد أهله الموجودين حوله ويغمض جفونه وفمه ويقصون شعره وذقنه ويضعونه على لوحة من الخشب، ويجعلون قدميه باتجاه نحو الباب ويغسلون جثته ورجليه بماء ساخن ويتولى غسل الرجال رجال وغسل النساء نساء. وتعطر الجثة بالروائح العطرية وتغطى في لفائف من الصوف أو القماش، ثم يجعلونه على مضجعه الجنازى ورجلاه مشدودتان ببعضهما، ويطوى ابهامه في كفه فيظهر أول حرف من لفظ جهوفا الذي تفسيره الله.

واعتادوا أن يضعوا بجانب رأس الميت في قبره قنديلا مضيئا، وقد أشار السيد المسيح إلى الطيب الذي كان معدا لدهن جسمه، وقال عن الطيب الذي ألقته ماري على قدميه (قد عملت عملا صالحا وحفظت هذا الطيب اليوم دفنى) (متى الفصل ٢٦ الأعداد ١٠ إلى ١٢) ومن هذا نفهم السبب الذي حمل نيقوديموس على استحضار المر والصبر لتحنيط جسد الرب وندرك الحكمة في ذهاب النساء التقيات صباح يوم الأحد القبر المسيح ومعهن المواد العطرية.

قال بنيشر (**Benicher**) في كتابه الخاص بالتحنيط قديما وحديثا إن الصبر والمر والمواد العطرية الخالية من المزيجات الفنية التي كان يستعملها قدماء المصريين ليست باستعمالها وحدها كافية لحفظ الجثة من الفناء، لأن جثة اليعازر التي عطرت بها ابتدأ تعفنها في اليوم الرابع من دفنه.

وبعد خراب مدينة أورشليم ابتدأ اليهود يتركون استعمال هذه المواد في تحنيط الجثث، واكتفوا بغسلها بالماء الممزوج بالنباتات العطرية كالزعتر والنعناع والبابونج وما أشبه.

التحنيط الوقتي عند اليونان والرومان

اشتهر عن اليونان والرومان إعجابهم بكل شيء جميل في منظره قوى في كيانه نافع بالمجتمع العمراني لاستعماله فيما يحسن لفائدته، وبهذه المبادئ الذهنية عندهم اعتبروا الموتى أجساما لا حركة لها، فهي كالأخشاب وباقي المواد التي تعد للحريق ولهذا لم يحفلوا بالتحنيط إلا لقليل كجثث الموتى من ملوكهم.

وقال هومير إن اليونان صبوا مرارا السلسبيل في منخر بتروكل طلبا البقاء جثته.

وروى بلوتارك وغيره أنهم بعد موت اجيزيلاس دهن أصدقاؤه جثته بالشمع وأرسلوها محفوظة بهذه الطريقة إلى مسقط رأسه.

وروى أيضا استاس (Stace) أن جثة اسكندر ذي القرنين حنطت كطلبه فدهنت بالعسل ووضعت في تابوت من الذهب ونقلها بطليموس على عربة كبيرة من بابيلون الى ممفيس، وهناك وضعوا الجثة في تابوت من الزجاج بدلا من التابوت الذهبي ليستطيع الناس مشاهدة هذا الرجل العظيم.

والمأثور عن الرومان أن قوانينهم القديمة كانت تحتم تحويل البيت إلى رماد حتى أن شعرائهم لم يذكروا في كتاباتهم أنهم أبقوا الجثث ولو بطريقة خاصة.

وقال كاريبوس (Carippos) في رثائه الإمبراطور جوستنيان (Justinien) إن الرومان اكتفوا في تشييع جنازته بإيقاد البخور المتداول ببلاد العرب في مكان الاحتفال بالجنازة،وملئوا أواني كثيرة من الرياحين والروائح العطرية رمز إلى طيب ذكره وانتعاش روحه في حياتها الأخروية.

وقال بنيشر (Penichier) لايبعد أن تكون هذه العادة عمت البلاد لأنهم في عهد البابا سكستس الرابع (Sexte v) عثروا تحت الطريق الابياني (Apienne) على جثة ابنة صغيرة كان الجمال ظاهرا على وجهها، وكانت منقوعة في ماء مالح. وقال سترابون إن هذا الماء كان عند الآشوريين عبارة عن العسل السائل وبه حفظا

جزيبوليس (**Agiripolises**) ملك سبارت (**Spart**).

وكان التحنيط الوقتي عندهم خاصا بالرجال العظماء الذين تستدعي عظمهم إبقاء جثتهم أياما ليراها الجمهور الذي كان يحترمهم ويعتبرهم كآلهة من الطبقة الثانية كما مرت الإشارة إليه.

وكان أهالي أثينا وروما يفتخرون بموتاهم ولا يبكونهم ؛ ويعتقدون أن الإنسان إذا مات ينبغي عدم الاسترسال في الاهتمام به بأزيد من حفلات الجنازة والتعزية ولذا لم يهتموا بتحنيط الجثث عندهم.

التحنيط في القرون الوسطى و القرون الأولى

من التاريخ الحديث

لما أحس الرومان بقوة بأسهم في المستعمرات التي احتلوها عمدوا إلى محق النفوذ اليوناني ؛ وغزوا قرطاجة ومصر، وحرم ثيودوس على المصريين عاداتهم الدينية ومنع إقامة شعائرها منعا تاما وبدد شمل اليهود إلى آخر ما هو مبسوط في المطولات التاريخية، ثم اسقط البرابرة الدولة الرومانية كأن قوة الانتقام الإلهي حتمت على أولى الجبروت أن يجرعوا كاس الذلة بعد العظمة والضعة والهوان بعد قوة البأس وعظم الصولة،وكان تاريخ سقوط دولتهم سنة ٤٧٣ ب. م ولم يبق شيء في بدء القرون الوسطى من هذه الشعوب العظيمة التي حاربت قرونا طويلة منتصرة لآرائها معضدة لديانتها مروجة لتجارتها ناشرة لواء العظمة والمدنية لكيانها.

خلفها شعوب أخرى في البلاد و نقلوا إليها عاداتهم، وكانوا يجهلون تاريخ ماضيها العظيم وقلبوا وبدلوا في النظامات ولم يحترموا ممتلكات غيرهم ولم يميزوا بين الخير والشر، واتخذوا السادات عبيدا وأهانوا المرأة التي كانت تحترمها الشعوب الراقية قبلهم أزماتنا طويلة.

ثم نجح بعض الوعاظ فأرشدوا الأمم البربرية المذكورة إلى إعمال الفطنة والتروي، وابتدئوا ينزعون من تصوراتهم الأخلاق الهمجية والعادات الوحشية ويغرسون في عقولهم الفضائل النفسية والبر بالإنسانية والشمائل الكريمة و منها التجاوز عن خطايا المسيء والحنان والرأفة بالضعيف والمواساة للغريب. وأن الديانة المسيحية جاءت تدعو إلى الخير و تنهي عن الشر وان المتمسكين بها أهل للعطف عليهم وحسن مجاملتهم.

وكانت هذه الأدوار قبل انبثاق النور العقلى شؤما على المدنية التي كانت منتشرة في العصور الغابرة. ولا غرابة بالنظر إلى ذلك أن يتلاشى فن التحنيط في كل هذا الزمن الطويل كباقي العلوم التي كانت تستضيء بمدونة المجدين في تداولها و الاقتباس من أسرارها، ثم جاء زمن الفوارس (**Chevalerie**) و من مبادئهم أن الحق للقوة فأثاروا الحروب وأوقدوا الفتنة الداخلية بين الأمراء وبعضهم وبينهم وبين الملك، فاستباحوا فظائع النهب والسلب وهتك الأعراض وسفك الدماء واستمرت الفوضى منتشرة في ذلك الزمان.

وقد تيقظ رجال الدين المصلحين فأسسوا الأديرة والكنائس والمجتمعات العامية العديدة لإلقاء الوعظ والإرشاد، ثم تقرب الكهنة إلى بلاط الأمراء واستمروا في اقتحام هذا الظلام بقوة العزيمة تقودهم إليها قوة الأمل في النهضة العقلية التي لابد أن تستنير البلاد بأضوائها واستطاعوا بذلك غرس مبادئ التهذيب في النفوس وإقناع الجماهير بالإقلاع عن خطاياهم، ولكنهم في خلال ذلك لم يهتموا باحترام جثث الموتى كقدماء المصريين لاعتقادهم أن مداواة الأخلاق العامة ورفع المفاسد ومحو القسوة المتناهية أولى بالاهتمام من باقي هذه الكماليات الوجدانية.

وكانوا يعتبرون الحياة الدنيا كميدان سياحة والأرض مصدر الآلام والنفس هبة من الله وستعود إلى خالقها، والجسم جثة بالية لابد أن تعود إلى معدنها الترابي الذي بدأ الله خلقها منه كما جاءت التوراة بنصوص كثيرة في هذا المعنى.

ولكن الملوك أرادوا من باب الأنانية والعظمة أن يبقوا جثثهم بعد موتهم فقرروا تحنيط الموتى منهم وحنطت جثة هنريكس الأول سنة ١١٣٥ ب.م. وعملت لها الفتحات الفنية والاحتياطات القانونية بإخراج الأمعاء ونحوها ووضعوا مكانها الطيب والأجزاء العطرية والفتحات في التحنيط هي الطريقة المصرية القديمة، ولكنها وحدها لا تكفي وكأنه قد غاب عن أذهان المحنطين في ذاك الوقت أن تجفيف الجثة من أهم العوامل لتصير صالحة للبقاء آمنة من التعفن والفناء. وقد جرب بعض المشرحين في القرن السادس عشر وسائل أخرى لحفظ الجثة وفي جملتهم الطبيب الهولاندى رويش (Ruysh) الذي كانت له شهرة ذائعة في فن التحنيط وكان من أساليبه فيه استخراج المخ من الدماغ وإخراج الأحشاء من البطن وملئ مكانهما بتركيب من الشمع ممتزج ببرافين (paratrine) وسنابي (Citnabie) ويحفظ الجثة في الكحول. وزعم سيو امردام (Suatnierdaim) الطبيب الشهير في التاريخ الطبيعي أن له الماما بسر بقاء الجسم بطريقة تنحصر في إلقاء الجثة مرارة في زيت النفض بعد أن تفصل عنها الأحشاء والمخ والأجزاء الرخوة وتغطيتها بلفائف ممزوجة بمواد تمنع عنها مؤثرات الهواء.

وأراد العالم جنال (Gannal) والدكتور (Saegaet) تجربة هذه الطريقة فلم توصلهما إلى التعويل عليها. والقائلون بان من أهم مسائل التحنيط التجفيف لجئوا إلى المواد السائلة احتيالا في الوصول إلى غرضهم العامي ولكنها سببت الاختمار الموضعي في الأجزاء المستترة ولم تف بالغرض المطلوب فمن الاطلاع على كل التفصيلات المتقدمة يجب الإذعان منها.

بالفضل الأكبر لأولئك العلماء الباحثين الذين بذلوا مجهوداتهم وكل استطاعتهم في المباحث الدقيقة وان تزف إلى أرواحهم واجبات الثناء الخالد لان الكهنة و عوام الشعب كانوا يقاومون عنايتهم ويسعون في إحباط مسعاهم لكراهيتهم التحنيط بادعائهم مخالفته للوجدان الديني وان الإنسان كما خلق من التراب فيجب أن يعود إليه.

التحنيط الحديث

لم يقعد همم الباحثين الذين اعترفوا بالعجز عن مجاراة الأقدمين في فنون التحنيط القديم عن صرف مجهوداتهم العلمية في التوصل إلى إتقان التحنيط الحديث الذي يمكن بإتباعه تحنيط الجثة وبقاؤها محفوظة زمنا ما - و من العلماء المتضلعين الذين اهتموا بالاكتشافات الحديثة العالم شوسييه (**choussier**) الأستاذ في مدرسة الطب بباريز،فقد قرر أن الاستعانة بالسليماني تمنع التعفن وساعده في رأيه بوديت (**Bondet**) الأجزاجى فاستحضر تركيبا لذلك من الممزوجات الآتية :

(١) مسحوق قشر السنديان والملح الممزوج بالكينا والقرفة وبعض مواد أخرى عطرية والقار والبخور تسحق كلها وتمزج بالزيت النقي.

(٢) الكحول المتشبع بالكافور.

(٣) الخل الممزوج بالكافور والكحول الممزوج بالبخور

(٤) دهان مركب من بلسم منقول من بيرو(**perou**) والميعة السائلة وزيت الجوزة الطيب وخزام وزعتر ٠

(٥) الكحول المشبعة بالزيبق.

ومتى أعدت هذه التراكيب شقوا الجثة وأخرجوا الأحشاء وفتحوا غطاء جلد الجمجمة ونشروا عظامها وأخرجوا المخ وغسلوها كلها مرارا بالماء الكثير والكحول الممزوج بالكافور ويضاف إلى الغسل بالماء الغسل بالخل والكحول المشبع بالكافور وتدهن الفتحات بمحلول السليماني وتعاد الأحشاء إلى محلها ويخيطون غطاء الجلد.

قال المسيو جانل أنهم بهذه الطريقة حنطوا جثة لويس الثامن عشر ملك فرنسا و جثث الشيوخ وكل عظماء رجال الإمبراطورية الأولى.

وقال الدكتور سيكيه (**Sugaet**) أن هذه العملية التحنيطية قد تجرح

إحساس العائلات ولهذا قصروا استعمالها على الظروف الاضطرارية واستمر العلماء في مباحثهم لتقرير قاعدة جديدة لعملية التحنيط بدون ايجاد فتحات في الجنة وتوصل إلى ذلك العالم بكلارد (**Beclard**) رئيس التشريح بمدرسة الطب في باريز فاخترع حقنة لهذا الغرض من محلول الزيبق في قصبة الشريان بواسطة فتحتين صغيرتين تحت الإبط وقرر استخراج الأحشاء بفتحة صغيرة في البطن و تلقي الجثة بعد ذلك شهرين في حوض مملوء بالسليماني فتبقى الجثة بهذه الطريقة سنة كاملة بدون أن يطرأ عليها تغير.

التحنيط العصري

إن عواطف الحنان والمحبة في بني الإنسان لمن اختصوهم من بين المجموع بالمكانة الرفيعة لا تنقضى أعراضها من الأحياء بموت أعزتهم، بل تستمر هذه العواطف في النفوس بقدر ما كان بين الفريقين من قوة الرابطة وصلة الألفة والإجلال، لهذا كان الاعتناء بحفظ جثث الموتى يومئ إلى الاحترام القطري المترتب على هذه العواطف النفسية التي تجعل الأحياء يألمون لعجزهم عن حفظ تلك الأجساد من التلف. والعلماء لم يقصروا في المباحث التي ظنوها توصلهم للاحتفاظ بجثث الموتى أزمانا طوالا، ليكون في بقائها نوع التسلية عن فقدانها و بقاء الأحياء بعدها يعانون ألم الفراق والحسرات.

إن تغيير الجسم بعد الموت مما لاشك فيه، ولكن الاعتبارات المعنوية تبقى راسخة في الأذهان وتحرك القلوب إلى التأثير والحنان. وقد قال بوسييه (**Bssuet**) في رثاء هنريت ملكة انكلتره أن الأجسام تتغير طبيعتها بعد الموت. فالفرد حال حياته يسمى هيكله الإنساني جسمها مكرما و وبعد موته جثة خامدة، وبعد أيام رمة متعفنة ثم يصير رفاتا تلاشى أجزاؤهم إلى ذرات ترابية تعافها النفس وتشمئز العين من إطالة النظر إليها ؛ فالموت يؤثر حتى على التسمية اللفظية لأدوار الجسم بعد الحياة، ولكن الكماليات النفسية لا تزول آثارها الشخصية ولا العلمية، خصوصا لان من خدموا

النوع الإنساني بالمؤلفات ونحوها تتناقل الأجيال ذكرهم بالتعظيم والاحترام. فالمعنويات الأدبية من هذه الوجهة أسمى من الماديات الحسية، وعلى هذا يكون كبار الفضيلة في النفوس أليق بكرامة الأرواح الخالدة.

قال لافوازيه (Lavoisier) ان التعفن هو الفساد الباطني لمادة الأعضاء بواسطة أكسيجين الهواء، فيحدث فيها انحلالا يشبه الاحتراق.

وفي سنة ١٨٦١ اكتشف المسيو باستير (Pasteur) الأسباب الحقيقية لهذا التعفن، و نسبه لأجسام مكروسكوبية حية، وهي التي سماها المسيو سيديلو (Sealillot) سنة ١٨٧٨ بالمكروبات، فان هذه تعطى للاكسيجين الواسطة لحرق الجثث وتحويلها إلى أدوار جديدة. وقد قسم المسيو باستير (Pasteur) المكروبات الى قسمين القسم الأول المكروبات التي لا تعيش إلا من الهواء والقسم الثاني التي تعيش من غيره. فالأول لا تعيش إلا بواسطة الاكسيجين النقي، والثاني باقترانه باكسيجين، ويعيش النوع الأول على سطح المواد المنتنة، والثاني يعيش في أعماقها فيتلف الجثث ويحدث لها صفات التخمر، و تتحول المواد الزلالية إلى متحصلات غازية و مواد جديدة كالهدروجين وغيره، فإذا تصادف بالكبريت والفسفور والآزوت نشأ منه الهدروجين الكبريتي والفسفورى والنشادر. فإذا اجتمعت هذه الأجسام معا كونت هذه الرائحة الكريهة المعروفة بالتعفن.

وقد بحثوا في كيفية توالد هذه المكروبات فقال المسيو ديكلو (Duelaux) في كتابه للكيميا أن كل مسطح الجسم مملوء بالتراب الذي ينقله إليه الهواء، والقنايتان المعوية والهضمية مملوئنان بجراثيم ومكروبات تذيب المادة اللينة. ومتى مات الإنسان وجدت كل هذه المكروبات حية أمام هذه الخليات المائية في الجثة فتخرق القناة الهضمية وتدخل هذه المكروبات في الأعضاء و تساعدها الانفصالات التي تلين العناصر الليفية وتغيرها و استطالة بعض أعضاء الجسم تحدث استخراج الغاز المنتن، فيتمزق الجلد وتستطيع مكروبات الهواء إتمام مهمتها. ومادة الأعضاء التي لا تذوب

في الماء تتحول إلى روح النشادر والماء وحمض الكربون، وتزيل حشرات الجثة المعروضة في الهواء أو المدفونة في الأرض، وتكون أولا دورا صغيرا،ثم تصير حشرات جديدة في خلال ثمانية أيام أو خمسة عشر يوما، فتجتذب الحشرات من الرائحة الكريهة المتصاعدة من الجثة، فتبيض عليها وينتشر الدود الصغير في كل الجثة، وتمتص الأخلاط السائلة وتزيل الأجسام الشحمية ولا يبقى من الجثة سوى الأعضاء اليابسة والعراقيب والجلد والمفاصل التي تهجم عليها أيضا بعد ذلك أنواع أخرى من الحشرات حتى تبيدها.

هكذا يزول بعد الموت هيكلنا البشري الذي تأكله المكروبات البشرية وغيرها و تفنيه الحشرات. وبعد خمس سنين غالبا لا نجد له أثر من المواد اللينة و تفقد العظام هيكلها العظامى، و تفتت مبتدئة بالجانبين فالحوض فالأعضاء حتى يمضي على ذلك اثنى عشر أو خمسة عشر سنة، فلا تجد من الجسم البشري إلا قليلا من الرماد فيتم قول التوراة (أيها الإنسان أنت من التراب والى التراب تعود)، وبعد مضي زمن طويل يتحلل هذا الرماد وينتهي دور الزوال التام لو يعتل الانسان عقبي أمره بعد الممات وقد ثوى في قبره

لبكي وأضنته الهموم وزاده خوف الفناء تخبطا في سيره

صور الحياة نضيرة في شكلها لكن تضن أخا النهي في فكره

يقضي الحياة منعما متأنقا ويسوقه للقبر وارث قصره

عجبا تهون على الأحبة تركه في الارض هل جحوا عواطفه بره

لم يكفروا حسناته وفعاله لكن لحكم الموت قوة قهره

فهنا لاينجي الصديق صديقه فالكل عند الموت صرعى دوره

وقد قالوا انه من الممكن إيقاف فساد الجثة بنوعين : إما قتل مكروبات الفساد بمواد تمنع التعفن؛ وإما منعها من أن تعيش وتنتشر وذلاك بحرمانها من الماء، ولا تتأتى

وسائله إلا بالتجفيف وتم ملاشاة الحشرات بواسطتين :

(١) بواسطة قتلها ومنعها من أن تبيض على الجثة.

(٢) إبعادها بواسطة الروائح العطرية والبلسم لان الحشرات تخافها.

والعلم الحديث قد أحاط بكثير من النواميس الطبيعية التي تحفظ الجثث في حالة جيدة في البرد والحر، ولا نتعرض هنا لنتائج البرد فقد عرفنا تأثيره وخاصيته من جثث السواح والمكتشفين التي وجدت في جبال الألب (**Alpes**) وجروانلاند (**Giroeland**)

وقد وجد في جدران مخزن جثث الرهبان في دير يعاقبة تولوز (**Toulouse**) جثث محفوظة في حالة جيدة. وقال العلامة فوتنيل أن حفظها ناتج عن حرارة المدفن. ويوجد بقرب ليون في كنيسة الأموات جثث محفوظة في حالة جيدة وعليها لفائف كوقاية لها. وقال بوسيلى (**arcelly**) ان حفظها ناتج من جفاف الهواء وسد المخزن سدا محكما. وهكذا عثر العلماء على كثير من الجثث المحفوظة في أماكن مختلفة في حالة جيدة.

وتوصل الدكتور لاسكوسكى (**Laskouski**) إلى حفظ كثير من الجثث بواسطة التجفيف على قاعدة ما تيسر له اكتشافه من نظائرها التي وجدت أزمنة محدودة في حالتها الطبيعية. واستعمل تجاربه في جثث الطيور فاخرج منها كل الماء الموجود في منسوجاتها (أي ٦٠% من وزنها) وحفظها زمنا طويلا بواسطة تجفيفها تجفيفا تاما فتتصلب الأجزاء اللينة لصعوبة تجفيفها. وقد بحث الأستاذ المذكور في طريقة أخرى لتجفيف هذه الأجزاء بمفعول على استحضار سائل مركب من ٥ كيلو من حمض الفنيك ممزوجة ومائة كيلو من الجلسرين مضاف إليها عشرين كيلو من الكحول درجة ٩٥، و من ٢٥ كيلو من حمض الفنيك ويذوب في هذا السائل ٥ كيلو من حمض البوريك،و استعمل هذا المزيج العمل حقن في وعاء الجثة من ٤ إلى ٦ كيلو لكل جثة.

وقد قرر الدكتور فاريو (Variot) طبيب المستشفيات بباريز استعمال الانتربو بلاسترى لحفظ الجثة من الفناء، فكان يغسلها به أولا من البطن بواسطة مسبر (محبس) يدخله في المرئ وينظف البطن بسائل مانع التعفن. وفي الصيف يستخرج كعادة قدماء المصريين جميع الأحشاء لعمل شق في وسط البطن، ثم تحقن الجثة بمحلول من مزيج كلورير الزنك وحمض الفنيك والجلسرين، وتحقن مقلة العين بالبرافين لمنعها من الانخفاض، ويسد الشقوق كالفم والجفون بالمصطكى، ويدهن الجليد محلول من نترات الفضة ثم تنقع الجثة في حوض محلول من سلفات النحاس مدة خمسة أيام أو ستة تم ترفع من الحوض وتوضع في صندوق، وقد أكد أن هذه العملية تحفظ الجثة من الفناء زمنا طويلا.

وقد استفاد العلم الحديث من استعمال الكهرباء في التحنيط حظا و افرا، لان كثيرا من الأهالي يشمئز من تشريح الجثث جاءت الكهرباء مطابقة لمشتهياتهم.

وكان المصريون يستعملون في طرائق التحنيط التجفيف في البلاد الحارة. واكتشف الأستاذ ديبوا (Dubois) بباريز طريقة للتحنيط في البلادالباردة بأن استعمال الكحول الاميلكي (alcool sawytique) المضاف إليه الأثير النتريك، و بمزجهما يستعملان حقنا للجثة في أجزاء كثيرة منها، فتشرب من هذا المحلول ثم تجف ويثقب المحنط بإبر صغيرة الحبات التي تظهر على الجثة فيسود الجلد ويتجفف وينقص حجم الجثة.

واستعمل الانكليز في لندن لحفظ الجثث محلولا مركبا من ١٠٠٠ جرام من الملح الرمادى و ٤٨٠ جرام من الحجر الشاب، ثم استعمل فان فاتر (Van Vater) محلول الجارين من نترات البوتاس والسكر الخام. وأطباء (فينا) يستعملون طريقة الاستاذ لانجر (Langer) بحقن الشرايين من مزيج الجلسرين وحمض الفنيك والكحول.

وقبل اكتشاف الدكتور لاسكوسكى (Laskouski) والدكتور برسيلى (

Parcelly) كان أطباء باريز يستعملون السائل الذي ركبه برسون (personne) وهو مركب من ٥٠٠ جرام من هترات الكلورات و٢٥٠٠ جرام من الجلسرين ونصف من الماء المقطر.

ويتضح من هذه الملخصات أن غرض الأطباء لم يكن مس كرامة الأحياء، ولا امتهان شعور العائلات، بل غرضهم البحث العلمي وهو في نظرهم فوق كل الملحوظات العرفية.

توصل الأطباء والعلماء الآن لحفظ القطع المشرحة من جسم الإنسان الطبيعي، لتأتي القواعد الفنية حتى يستطيع المشرحون مستقبلا أداء واجبهم خدمة للإنسانية بأعمالهم المفيدة، لان درس تركيب الإنسان يستدعي عناية وتوسعا. وبهذه الطريقة يرجع الفضل إليهم في تدوين ما تقوم به مباحثتهم، خصوصا إذا توصل الاختصاصيون في الطب الباطني إلى معرفة أسباب الأمراض كما أن ذلك يفيد أيضا في تحنيط الجثث من أجل الطب الشرعي في التحقيقات القضائية الجنائية.

والخلاصة أن التحنيط بأنواعه ما استعمل في العصور الأولى والوسطى والحديثة لأغراض أدبية ترجع إلى معتقدات دينية وعواطف عائلية، فانه قد أفاد العمران بما أمكن الوصول إليه في الاكتشافات المتوالية عن دول وملوك غابرة. أفادتنا تواريخ النقوش الموضوعة على قبورها و توابيتها بما كان لهم من العظمة والتضلع والتنور والإقدام و الاجتهاد في نشر العلوم وصيانة أسرارها. فالتحنيط كما أفاد من الوجهة الأدبية أفاد أيضا في الاكتشافات التاريخية والجغرافية والمعلومات المتنوعة. فالهمم التي اقتطفنا عن آثارها هذه المعلومات جديرة بأن نخلد ذكرها بما نستطعيه من آيات المدح والثناء فا جزاء الإنسان إلا الإحسان.